الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: النص الأدبي الحديث

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات أدبية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة الأولى: الإحياء الشعري في المشرق (01)

عصر النهضة في الأدب العربي:

قبل الخوض في موضوع عصر النهضة في الأدب العربي الحديث لابد من الإشارة إلى أن الأدب العربي كان هو الأدب العالمي الرفيع الذي يقرأه شباب العالم المثقف في الشرق والغرب منذ أوائل ظهور الإسلام في القرن 7 م وحتى القرن 16م، في أوروبا كانت الثقافة العربية ومظاهرها من أدب وفنون يبهران عيون الأوروبيين وقلوبهم وأفكارهم، فلم يكونوا يقرأون غيرهما حتى لقد صرح الشاعر الإيطالي **تبرارك** المتوفى عام 1374م قائلا: « يا عجبا لقد استطاع شيشرون* أن يكون خطيبا بعد ديميستز** واستطاع فرجيل *** أن يكون شاعر بعد هوميروس****، فهل قدر علينا أن لا نؤلف بعد العرب؟ لقد تساوينا نحن والإغريق وجميع الشعوب غالبا وسبقناهما أحيانا إلى العرب» .

وصاح من جهة أخرى **بطرياك** قرطبة في القرن 16م بقوله:«وا أسفاه إن كل الشبان المسيحيين الذين يريدون إظهار أنفسهم نجده لا يعرفون لغة العرب وآدابهم »، ويقول **قسطاف لوفون** في كتابه (حضارة العرب): «إن أوروبا مدينة للعرب بحضارتهم فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية »، وتقول المستشرقة الألمانية المعاصرة **زغريد هولكه** في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب): « استيقظ الفكر الأوروبي من سباته الذي دام عشرة قرون أو يزيد على صوت قدوم العلوم والآداب والفنون الاسلامية»

ومعنى ذلك كله أن مقاليد الريادة العالمية وعلى جميع الأصعدة وخاصة العلمية والثقافية والأدبية منها كانت بيد العرب والمسلمين ولقرون طويلة، في الوقت الذي كان فيه الغرب وباعترافات أهله في سبات عميق، وفي أواخر العصر العباسي كان العالم العربي والاسلامي قد دخل مرحلة خطيرة من الجمود وأثر ذلك تأثيرا كبيرا على الملكات وعلى الفطرة الأدبية وعلى فنون الأدب تأثيرا استمر صداه في العصر المملوكي ثم العثماني، وجانب كبير في العصر الحديث، في الوقت

---

* خطيب روماني شهير متوفى في 43ق م

** خطيب إغريقي مشهور عاش في القرن 4 ق م

*** شاعر روماني متوفى في ق 19 ق م

**** شاعر إريقي مشهور عاش في القرن 9 ق م

الذي بدأ فيه الغرب يفيق من سباته وينهل من العلوم والآداب والفنون الاسلامية، وانتقلت إليه بعد ذلك الريادة الحضارية كما هو معلوم.

بداية عصر النهضة:

1- يؤرخ لعصر النهضة في الأدب العربي الحديث بداية من الصدمة الحضارية التي حدثت للعالم العربي بعد اتصاله بالعالم الغربي سنة 1798م على إثر حملة نابليون التي قادها إلى مصر فاكتشف العالم العربي الذي نام طويلا الهوة التي تفصله عن العالم الغربي، بعد أن اصطحب معه نابليون طائفة من العلماء ومعهم مطبعتهم ومصنفات العلم الحديث، فصدم العرب للأشواط التي قطعها الأوروبيون في ميدان التقدم.

وإذا كان ابن خلدون قد ذهب إلى القول بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب لأن الهزيمة توحي إلى المغلوب بأن مشابهة الغالب قوة يدفع بها مهانة الضعف الذي جنى عليه بتلك الهزيمة، فإن العرب عندما جاءهم نابليون أوشكوا أن يندمجوا في بنية المتسلط عليهم ويفنوا في مادته وعمله ولغته وآدابه، لولا أن بقايا الحيوية كمنت فيهم وورثوها من تاريخهم القديم قد عصمتهم من ذلك الذوبان، خاصة وأن حملة نابليون كانت قد سبقتها نوايا سيئة للسيطرة على العالم العربي باستغلال ثرواته، حيث سبقت هذه الحملة بالكثير من الرحالة الذين جاؤوا إلى البلاد العربية بحجة الاستكشاف لكنهم لم يكونوا إلا جواسيس وهناك قائمة طويلة من الأسماء التي كانت تقوم بهذه المهمة.

نذكر في هذا المجال كتاب (رحلة إلى مصر وسوريا) **لبولني** في 17م الذي ترجم إلى العربية وإلى لغات أوروبية، وكتاب (رسائل عن مصر) لمؤلفه **سفاري** عام 1785م، وكتاب (رحلات في إفريقيا ومصر وسوريا ولبنان1792-1798) لمؤلفه **سونيني** وغيرها كثر.

ولقد فهم العرب نوايا تلك الحملة وغيرها من الحملات الاستعمارية بعد ذلك على بلدانهم فلم يقفوا مكتوفي الأيدي، وكانت هناك انتفاضات وثورات حاملة للواء الدعوة إلى الاستقلال ومقاومة الاستعمار والتخلص من التبعية الغربية وإذا كانت بلدان العالم العربي قد تحررت من الاستعمار الغربي، فإن هذا الأخير قد نجح في إبقاء تركة ثقيلة وكبيرة من المشكلات على كل هذه البلدان، كما نجحوا في زرع كيان مصطنع في قلب العالم العربي يهدد وجوده في كل لحظة، يدعمه بكل الوسائل والسبل ويقدم له كل ما يحتاج إليه لكي يحافظ على مصالحه في العالم العربي ولكي يضرب أي محاولة للنهوض والتقدم والوحدة في المنطقة العربية.

2- إحياء التراث القديم كان من أثر الصدمة الأولى بين العالم العربي وسيطرة الحضارة الأوروبية الحديثة، إن المغلوب وهو العالم العربي أخذ في محاكاة الغالب كما هي القاعدة العامة، وأن هذه المحاكاة بدأت بالتقليد الآلي الذي لا تمييز فيه

ولكنها لم تنطلق إلى نهاية الشوط بل تحولت بعد قليل عنه إلى محاكاة المميزة المختارة، ثم إلى الاستقلال المتعثر في أول الأمر ثم إلى الاستقلال الناشط إلى الغاية من خطواته بعد حين.

لقد كانت حيوية التاريخ العربي الاسلامي وحيوية اللغة العربية وحيوية مظاهر الجدة في التراث العربي الاسلامي هي التي أوحت إلى عقول المتيقظين من أبناء العالم العربي أنهم يشبهون أنفسهم في أيام مجدهم وازدهار لغتهم وآدابهم ولا يشبهون الأوربيين في حضارتهم الحديثة، فلم تمض سنوات على افتتان الإنسان العربي المغلوب بمظاهر القوة في الحضارة الأوروبية الحديثة حتى سُمعت في العالم العربي صيحة الدعوة إلى إحياء التراث العربي الاسلامي القديم.

3- إذا كانت حملة نابليون على الشرق قد شكلت صدمة في العالم العربي ودفعته إلى التنادي لإحياء التراث والتأسيس على قيمة الإيجابية في النهضة، فقد سبقت نابليون وعاصرها وتلاها ظهور حركات إصلاحية دعت إلى النهوض من الانهيار الذي أصاب الأمة في كل مجالات حياتها، كما دعت إلى محاربة الجهل والتخلف والجمود والتمرد على الغزو الغربي تمردا شاملا (سياسي، عسكري، ثقافي، اقتصادي) خاصة وأن من أوليات ذلك الغزو المنطقة العربية كان مسخ هوية العالم العربي.

وقد عمل أولئك المصلحون الذين ظهروا منذ منتصف القرن 18م وما تلاه غرس روح النهضة والحرية في نفوس الملايين من العرب والمسلمين وقد انصبت جهودهم في ميدانين كبيرين:

أ. مواجهة أسباب انهيار الأمة.

ب. مواجهة العدو الخارجي الذي اكتسح البلاد العربية.

وقد انتهت حركة أولئك المصلحين الفكرية نقطة انطلاق مهمة في حياة العرب الأدبية والفكرية والثقافية في العصر الحديث.

العوامل المساعدة:

1- البعثات العلمية: لقد كان للبعثات العلمية فضل على الأدب العربي الحديث ويتجلى ذلك فيما يلي:

أ- نقل بعض آثار الأدب الغربي إلى دنيا الأدب العربي تأليف وترجمة وتعريب للمصطلحات مثل الوحدة العضوية.

ب- نقل هؤلاء المبعوثين بعض مشاهداتهم وانطباعاتهم إلى قراء العربية بعد أن أتيح لهم أن يطلعوا على آثار الحضارات الغربية عن كثب.

ج- كتب هؤلاء في رحلاتهم عن وعي ونقلوا اختيارات معينة وجدوا أنها مفيدة لبلادهم وبخاصة في مجال الأدب والفكر والاجتماع والسياسة.

د- القيام بمقارنات مستفيضة بين الشرق والغرب والوصول إلى استنتاجات مهمة حول محاسن الحضارة الغربية ومساوئها وكذلك حول تقدم أوروبا والواقع العربي المتقهقر.

2- المكتبات: أدرك رواد النهضة في الأدب العربي الحديث أهمية المكتبة في كل نهضة علمية أو أدبية، فعنوا بالمكتبات، كما لا يخفى عنهم أهميتها في تسهيل عمل الباحث في الإبداع الأدبي والعلمي لذلك انتشرت المكتبات في الوطن العربي وكانت بذلك عاملا مهما في نهضة الأدب العربي الحديث.

3- الترجمة والنقل: لا شك أن الترجمة قد فتحت آفاق رحبة للأدب العربي الحديث كما عرفته على فنون من الأدب لم يكن العرب على عهد بها مثل الرواية والمسرح والمقال، الشعر المسرحي، كما ظهر أثرها في النقد الأدبي فظهرت قضايا نقدية مثل : التجربة الشعرية، الوحدة العضوية، الصورة الأدبية، موسيقى الشعر، وهي قضايا لم تكن معروفة لدى أدباء العربية ونقادها من قبل وإن كان نقادنا العرب القدامى قد تناولوها بصيغ مختلفة.

4- الاستشراق: المستشرقون هم فئة من المفكرين والعلماء الغربيين المختصين في دراسة شؤون العالم العربي والاسلامي ودراسة عاداته وتقاليده وعلومه ولغته وآدابه ودينه ولهجاته وتاريخه وتراثه.

أما تاريخ الاستشراق فيعود إلى القرن 10م زمن النهضة العربية الاسلامية في عهودها المجيدة عندما كان العالم الاسلامي في قمة /جده عزيزا عامرا بمدارسه وجامعاته ونشاطاته في التأليف والترجمة والعلوم والفلك والطب والهندسة والكيمياء في وقت كان الغرب يغط في الجهل والتخلف العلمي والحضاري، والمستشرقون فئتان :

أ- فئة تمثل الساعد الأيمن في الحملات الاستعمارية على بلدان العالم العربي والاسلامي.

ب- فئة حاولت بقدر جهدها في دراستها لشؤون العالم العربي والاسلامي الالتزام بالموضوعية، ويمكن أن نذكر أهم ما قدمه المستشرقون للأدب العربي حيث اهتموا بكل ما يتعلق به ودرسوا تاريخه وتطوره وقيمته وأصالته وعصور نهضته وازدهاره وتأخره وانحطاطه وانتحاله وسرقته وتأثره وتأثيره وشعرائه وكتابه.

وقد كانت عناية المستشرقين بالأدب العربي أكثر وأشد شغفا لأنهم كانوا يحاولون فهم الشخصية العربية المسلمة والاحاطة بكل جوانبها.

الإحياء الشعري في المشرق:

إن حركة البعث والإحياء تبدأ من الثورة العرابية 09 سبتمبر 1881م التي غيرت من مفاهيم المصريين، وقد كانت في أواخر القرن 19م؛ حيث انتفض المصريون لما أدركوا الفوارق الموجودة بينهم وبين أجناس أخرى مثل الأتراك... وقد كانت انطلاقا من الضباط الذين لمسوا بشكل مباشر نوع من التمييز بينهم وبين بعض الضباط في الترقيات وغيرها. في عهد محمد علي كان هناك تباين بين المصريين في إنشاء المدارس وغيرها، وهو سياسة سلبية بدأت من عهده واستمرت.

وقد أوقد هذه الثورة الزعيم أحمد عرابي ومن بين مبادئه: العدل والمساواة، ويجب أن يكون هناك قفزة نوعية في التفكير المصري، والثورة العرابية لم تنجح فقد دخل الإنجليز سنة 1882م ولكنها عمقت الوعي، وقد كان هناك تغيير في مختلف الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية. وبسبب الدعوة إلى التغيير السياسي تبعها تغيير اجتماعي وحركة فكرية. ولأن الشعر أسبق من النثر فقد كان اهتمام واسع به حيث ظهرت جملة من العوامل جعلت الشعراء يغيرون في طريقة نظمهم للشعر.

1- الثورة العرابية التي قادها أحمد عرابي فقد أيقظت الشعب.

2- الثقافات الأوروبية العلمية وترجمة الكتب العلمية الغربية، طبعت كل المخطوطات أي انتشار النسخ وبالتالي انتشار الثقافة

3- ترجمة الكتب الأدبية والمسرح باعتباره غريبا عن الثقافة العربية، وقد كان هناك اختلاف كبير بين النقاد حول وجود المسرح العربي مثل: حطم النابغة الذبياني على أشعار العرب بالصواب والخطأ يعتبر تمثيلي، وكذلك خيال الظل (عرائس الأرجوز) كانت موجودة لدى العرب، وهناك من يرى أن المسرح جذوره غربية، وقد ترجمت البعض من أعمالهم كمسرحية شكسبير التي ترجمها نجيب حداد، ومسرحية موليير التي ترجمها محمد عثمان جلال.

4- الصحافة كان لها تأثير في دعم الشعر ومن بينها "جريدة المؤيد" التي أخرجها الشيخ علي يوسف، وجريدة اللواء لمصطفى كامل.

5- الجامع الأزهر فهو منارة لأصول تعلم الدين وأصول اللغة العربية، فقد وقف هذا الجامع موقف المتحدي، وقد كان الرقيب على المواطن من الثقافات الغربية وما تحمله.

الاتجاه الإحيائي في الشعر العربي الحديث:

محمود سامي البارودي هو رائد الشعر الإحيائي وسمي برب السيف والقلم، والمقصود بالبعث هو إعادة الحياة، فالشعر قد مات وأتت حركت البعث لإحيائه.

محمود سامي البارودي حاكى شعراء العصر الجاهلي وعارضهم ، حاكى المتنبي، وأبو فراس حيث أعاد للشعر العربي جزالته، أصالته، متانته، ومن العوامل المساعدة له القراءة المتكررة لأشعار السلف وحفظها إلى الموهبة، وقد كان له حس راق وقصائده لا تقل قيمة عن أشعار الجاهليين والعباسيين فهو يختار الألفاظ بعناية كبيرة.

وتتجلى خصائص الشعر الإحيائي في شعر البارودي حيث يقول: «الشعر لمحة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر، تنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلآلئها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان، فينفث بألوانه ينير بها الحالك ويهتدي

بها السالك وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلفت معانيها وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سليما من وصمة التكلف، بريئا من عشوة التعسف، غنيا عن مراجعة الفكرة، فهذه صفة الشعر الجيد ».

البارودي في هذا القول يتحدث عن طبيعة الشعر الجيد، وفي هذا القول انتقاء للكلمة الجزلة فكل كلمة اختارها تؤدي معناها ضعفين، فالشعر يقوم على الخيال والجيد منه يكون سليم التكلف فيجب أن تصل الأفكار بشكل مباشر، وبشكل عام تحدث البارودي عن خصائص الشعر الإحيائي:

1- البناء الصوتي: فيمتاز بفخامة الأصوات.

2- هندسة القصيدة: أي بناؤها، فشعر البارودي يحافظ على وحدة البيت واستقلاله أي بإمكانه التقديم والتأخير ولا يختل المعنى وقصيدة البارودي تتبع النظام الخيطي، فالأبيات مستقلة لكن وفق تسلسل قابل للتبديل، والخيط الثابت هو الوزن والقافية.

3- الغرض: مهم جدا في القصيدة العربية وهو موضوعها، والبارودي حاول أن يشاكل القدماء رغم وجود أشياء في بيئته مثل المدافع والأسلحة الجديدة وغياب السيوف والرماح لكنه تغنى بالسيف والرمح في قصائده.

تتعدد الأغراض في قصائده مثلا يبدأ بالغزل وينتهي بالحكمة، فالأغراض التي يطرقها البارودي هي تقليدية بحتة: المدح، الهجاء، الشكوى والعتاب... وصف الخمريات، الزهد، الحكمة، وهناك بعض الجزئيات لم يضف إليها جديدا باعتباره موجودا في بيئة تختلف عن البيئة الجاهلية، ووجود الصحافة والترجمة، من المفروض أن يكون على شاكلة القديم مع إضافة روح العصر الحديث.

لكن هناك بوادر تشير إلى الشعر الوطني المبثوثة في قصائده المعهودة فهناك قصائد كاملة في الوصف وكذلك في الخمريات، والفخر حيث يتغنى بمكارم وأخلاق القوم، وفي الرياض يحاول أن يخلط بين عصرين العصر العباسي والأندلسي ليخرج بوصف يمزج بين هذا وذاك، وفي الغزل ينسب إلى الحبيبة كما ينسب الشعراء القدماء حبيباتهم.

يقول في الفخر:

أنا مصدر الكلم النوادي بين الحواضر والغوادي

أنا فارس، أنا شاعـــر في كل ملحمة ونادي

ويقول في رثاء زوجته بعد أن وصله خبر وفاتها وهو في المنفى:

هيهات بعدك أن تقر جوانحي أسفا لبعدك أو يلين مهادي

ولهي عليك مصاحب لمسيرتي والدمع فيك ملازم لوسادي

فإذا انتبهت فأنت أول ذكرتي إذا أويت فأنت آخر زادي

ومن غرض الحكمة نأخذ له هذه الأبيات:

واترك الحرص تعش في راحة قلما نال مناه من حرص

قد يضر الشيء ترجو نفعه رب ظمآن بصفو الماء غص

4- الموقف والنظر: فموقف البارودي من موضوعاته موقف وصفي حاول أن ينفصل عن موضوعه ويصوره عن طريق مقارنته بغيره مما صلح عليه أو هي القاسم المشترك التي طرقها البارودي مثل الخمريات فهناك بعض المعايير المحددة لا يجب الخروج عنها في نظم الشعر أحيانا تجده يقف موقف الواصف بينه وبينها مسافات لأنه يصف أشياء بعيدة عنه سبقته فهناك مسافة ثقافية ذهنية، يصف ثورة العرابي مثلا استعملت المدافع ولكنه يصفها من خلال السيوف والرماح رغم تغير العصر والأسلحة.

5- من حيث القيم: فالقيم لها ارتباط وثيق بما تحدثنا عنه في الغرض سواء مدحا أو هجاء أو رثاء فنحن ننسب القيم الجديدة إلى ذات الشاعر مثلا وقومه.

الذم والهجاء نجرده من هذه القيم التي نسبت للممدوح، الغزل توصف به بمقاييس خاصة بالجمال: الشعر الأسود والعيون كعيون المهاة والضباء، الخمرة يجب أن تكون قديمة وصافية ويتعاطاها شخص محدد.

6- من حيث الألفاظ: البارودي قرأ للقدامى وتأثر بهم فهو يختار الألفاظ الفصيحة والأقرب إلى الأجواء العباسية حيث يختارها بعناية فائقة والبدوية منها مثلا وجود الخيل حيث توحي إلى الأجواء البدوية التي تجعلنا نرجع إلى البيئة البدوية.